

عرض الحياة الدنيا ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُكْفِلِينَ﴾ أي وما أريد على ما أرسلني الله تعالى به، ولا أبتغي زيادة عليه، بل ما أمرت به أدبته، لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة، وعن ابن مسعود قال: يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم، فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإنه عز وجل قال لنبيكم ﷺ ﴿قُلْ مَا أَشْتَكُرُ عَلَيْهِ مِنْ آجِرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُكْفِلِينَ﴾ (٨٦) **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** (٨٧) ﴿يعني القرآن، فإنه ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن. ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ الإنس والجن. وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي خبره وصدقه ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أي عن قريب، وقيل: يوم القيامة.

## تفسير سورة الزمر

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

#### ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١)

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب، وهو القرآن العظيم من عنده تبارك وتعالى، فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، ﴿الْعَزِيزِ﴾ أي المنيع الجنباب ﴿الْحَكِيمِ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

#### ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ فَاغْبُدْ لِلَّهِ مَخْلَصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (٢)

﴿فَاغْبُدْ لِلَّهِ مَخْلَصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أي فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده، وأنه ليس له شريك ولا عدل ولا نديد، ولهذا قال:

#### ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ

رُفْعًا إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (٣)

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له، أو

الدين الخالص: شهادة أن لا إله إلا الله. ثم أخبر عز وجل عن عبادة الأصنام من المشركين أنهم

يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ رُفْعًا﴾ أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى

أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة

عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم، وما ينوب بهم من أمور الدنيا،

فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به.

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤١﴾﴾

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي لكان الأمر على خلاف ما يزعمون، وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه كما قال عز وجل: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَآتَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: 17] ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: 81] كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لمقصد المتكلم. ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي كل شيء عبد لديه، فقير إليه، وهو الغني عما سواه الذي قد قهر الأشياء فدانت له، وذلت وخضعت. تبارك وتعالى عما يقول الظالمون الجاحدون علواً كبيراً.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّورُ ﴿٥١﴾﴾

يخبر تعالى أنه الخالق لما في السماوات والأرض وما بين ذلك من الأشياء، وبأنه مالك الملك، المتصرف فيه، يقلب ليله ونهاره ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أي سخرهما يجريان متعاقبين لا يفتران كل منهما يطلب الآخر حثيثاً، كقوله تبارك وتعالى: ﴿يَنْشِئُ اللَّيْلَ أَنْتَارًا يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: 54] وقوله عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي إلى مدة معلومة عند الله تعالى، ثم ينقضي يوم القيامة ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّورُ﴾ أي مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه، ثم تاب وأناب إليه.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآئِنِ تُصْرَفُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألوانكم من نفس واحدة، وهو آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أي وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهي المذكورة في سورة الأنعام وثمانية أزواج من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين. وقوله عز وجل: ﴿يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي قدركم في بطون أمهاتكم ﴿خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ يكون أحدهم أولاً نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحماً وعظماً وعصباً وعروفاً وينفخ فيه الروح فيصير

خلقاً آخر ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14] وقوله جل جلاله ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ يعني في ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد وظلمة البطن. وقوله جل جلاله ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي هذا الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يذهب بعقولكم؟

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾  
يقول تبارك وتعالى مخبراً عن نفسه تبارك وتعالى أنه الغني عما سواه من المخلوقات كما قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: 8] وفي صحيح مسلم «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً» وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي لا يحبه ولا يأمر به ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي يحبه لكم ويزدكم من فضله ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل نفس عن نفس شيئاً، بل كل مطالب بأمر نفسه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي فلا تخفى عليه خافية.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾  
﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي في حال العافية يشرك بالله، ويجعل له أنداداً ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي قل لمن هذه حالته وطريقته ومسلكه ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ وهو تهديد شديد، ووعد أكيد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرِكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: 30].

﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَأَنَاءَ الْبَيْتِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾

يقول عز وجل: أمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً؟ لا يستون عند الله، كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [آل عمران: 113] ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَأَنَاءَ الْبَيْتِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ أي في حال سجوده وفي حال قيامه، والقنوت هو الخشوع في الصلاة والطاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ ﴿ءَأَنَاءَ الْبَيْتِ﴾

جوف الليل . ﴿يَحْدُرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أي في حال عبادته خائف راجح ، ولا بد في العبادة من هذا وهذا ، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب ، فإذا كان الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه . روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت ، فقال له : «كيف تجدك؟» فقال : أرجو وأخاف ، فقال رسول الله ﷺ : «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله عز وجل الذي يرجو وأمنه الذي يخافه» ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه . ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل الله أنداداً ليضل عن سبيله ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب ، وهو العقل .

﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ائْتُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ائْتُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم . ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾ فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأوثان . وعن عطاء في قوله تبارك وتعالى : ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾ قال : إذا دعيتم إلى معصية فاهربوا ثم قرأ ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء : 97] وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يعني في الجنة .

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أي إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له .

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال السدي : يعني من أمته ﷺ .

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد ، وأنت رسول الله ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة ، وهذا شرط ، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى .

﴿قُلِ اللَّهُ أَعَدُّ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ فاعبدوا ما شئتم من دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ

وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُنِيبُونَ﴾

﴿قُلِ اللَّهُ أَعَدُّ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ فاعبدوا ما شئتم من دُونِهِ ، وهذا أيضاً تهديد وتبرؤ منهم ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أي إنما الخاسرون كل الخاسران ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي تفارقوا فلا التقاء لهم

أبداءً، وسواء ذهب أهلهم إلى الجنة وقد ذهبوا إلى النار، أو أن الجميع أسكنوا النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور. ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي هذا هو الخسران المبين الظاهر الواضح.

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبُدُونَ فَاتَّقُونَ ﴿١٦﴾﴾

ثم وصف حالهم في النار فقال: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ كما قال عز وجل: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نُجَزِي الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف: 41]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَمْشُونَ عَلَى النَّارِ يَنْسِفُ اللَّهُ أَصْفَادَهُمْ فَذُرَى عَلْوَى يَلْمُؤْنَ عَنْهَا نَارُ الْجَهَنَّمَ فَيُلْغَى اللَّهُ فِيهَا أَسْفَادَهُمْ وَعَلَى كَتِفَيْهِمَا كُؤُوبٌ مُخْتَلِفَةٌ أَلْوَى يَلْمُؤْ أَوْلَى يَلْمُؤْ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُتَسَاوُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: 55] وقوله جل جلاله ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ﴾ أي إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده لينزجروا عن المحارم والمآثم. وقوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَ فَاتَّقُونَ﴾ أي اخشوا بأسي وسطوتي وعذابي ونقمتي.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادَ ﴿١٧﴾﴾

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ قيل: نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل، وأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان وأناب إلى عبادة الرحمن، فهؤلاء هم الذين ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: 64]. ثم قال تعالى: ﴿بَشِّرْ عِبَادَ﴾.

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا

الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي يفهمون ويعملون بما فيه كقوله تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: 145] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي ذوو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى: أفمن كتب الله أنه شقي تقدر أن تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أي لا يهديه أحد من بعد الله، لأنه من يضل الله فلا هادي له، ومن يهده فلا مضل له. ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَّبْنِيَةٌ نُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلَفُ

اللَّهُ الْمِعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

ثم أخبر عز وجل عن عباده السعداء أن لهم غرفاً في الجنة، وهي القصور الشاهقة ﴿مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ

مَبْنِيَّةٌ ﴿ طَباق فوق طباق ، مبنيات محكمات ، مزخرفات عاليات . روى الإمام أحمد رحمه الله عن رسول الله ﷺ : « إن في الجنة لغرفاً يرى بطونها من ظهورها ، وظهورها من بطونها » فقال أعرابي : لمن هي يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وصلى بالليل والناس نيام » ورواه الترمذي وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الجنة ليتراوون في الجنة أهل الغرف كما تراوون الكوكب الدرّي الغارب في الأفق الطالع في تفاضل أهل الدرجات ، فقالوا : يا رسول الله : أولئك النبيون ؟ فقال ﷺ : « بلى ، والذي نفسي بيده ، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا بالرسول » ورواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ بِهِ فَزَيَّنَهُ مَصْفُورًا ثُمَّ يُجْعَلُهُ حُطَمًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَمَنْ سَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَلَيْسَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾  
يخبر تعالى عن أن أصل الماء في الأرض من السماء كما قال عز وجل : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان : 48] فإذا أنزل الماء من السماء كمن في الأرض ، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء ، وينعه عيوناً ما بين صغار وكبار بحسب الحاجة إليه ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ أي ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعاً مختلفاً ألوانه ، أي أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه ﴿ ثُمَّ يَهْبِجُ ﴾ أي بعد نضارته وشبابه يكتهل فتراه مصفراً قد خالطه اليبس ﴿ ثُمَّ يُجْعَلُهُ حُطَمًا ﴾ أي ثم يعود يابساً يتحطم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسناء ثم تعود عجوزاً شوهاء ، والشاب يعود شيخاً هرمًا كبيراً ضعيفاً وبعد ذلك يموت ، فالسعيد من كان حاله بعد إلى خير . وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء ، وينبت به زرعاً وثماراً ، ثم يكون بعد ذلك حطاماً كما قال تعالى : ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الكهف : 45] ولهذا قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَلَيْسَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي فلا تلين عند ذكره ، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم ﴿ أَوْلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي نَقَّسِعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٦﴾ ﴾

هذا مدح من الله عز وجل لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم قال الله تعالى ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي ﴾ . الآية تشبه الآية ، والحرف يشبه الحرف ، أو ﴿ مَثَانِي ﴾ هو ترديد

القول ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى، أو تكون في السورة آية، وفي السورة الأخرى آية تشبهها، أو القرآن يشبه بعضه بعضاً ويرد بعضه على بعض، أو إن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد فهذان من المتشابه، وتارة تكون بذكر الشيء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة، ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثاني كقوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي نَجِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: 13، 14]، وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضاً فهو المتشابه. وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله تعالى: ﴿مِنهُ ءَايَاتٌ تُحْكِمُكُمُ هُنَّ أُمُّ الْكَيْدِ وَأَخْرُ مَتَشَبِهَاتٌ﴾ [آل عمران: 7] ذاك معنى آخر. وقوله: ﴿نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَحْشَوْنَ رَبَّهُمْ...﴾ أي هذه هي صفات الأبرار، عند سماع كلام الجبار المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف ﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما يرجون ويأملون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: 88] أي هذه صفة من هداه الله، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله ﴿وَمَن يَضِللِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾.

﴿أَفَمَن يَبْقَىٰ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾  
يقول تعالى: ﴿أَفَمَن يَبْقَىٰ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ويقرّع، فيقال له ولأمثاله من الظالمين ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ كمن يأتي آمناً يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّبِعِ مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَشِئِ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: 22] وقوله: ﴿أَفَمَن يُلَاقِ فِي النَّارِ خَيْرًا مِّن يَأْتِي ءَايَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: 40].

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاذْتَهُمُ الْعَذَابُ مِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾  
﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاذْتَهُمُ الْعَذَابُ مِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ يعني القرون الماضية المكذبة للرسول أهلكتهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق.

﴿فَاذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾  
﴿فَاذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفي المؤمنين منهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل، وخاتم الأنبياء ﷺ. والذي أعده الله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم في الدنيا، ولهذا قال جل جلاله ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾  
يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي بينا فيه بضرب الأمثال ﴿لَّعَلَّهُمْ

يَذَكِّرُونَ ﴿ فَإِنَّ الْمَثَلُ يَقْرَبُ الْمَعْنَى إِلَى الْأُذْهَانِ كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾  
[الروم: 28] وقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [٣٢] ﴿ [العنكبوت: 43].

﴿فُرءَا أَنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٢٨)

﴿فُرءَا أَنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي هو قرآن بلسان عربي مبين، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله كذلك، وأنزله بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما فيه من الوعد.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ  
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٩)

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ﴾ أي يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ أي مسالماً ﴿لِرَجُلٍ﴾ أي خالصاً لا يملكه أحد غيره ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي لا يستوي هذا وهذا، وكذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له فأين هذا من هذا؟ ولما كان هذا المثل ظاهراً بيناً جلياً قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي على إقامة الحجة عليهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي فلهذا يشركون بالله.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٤٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿ (٤١)

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق رضي الله عنه عند موت الرسول ﷺ حتى تحقق الناس موته مع قوله عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقِلْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَٰنَ عَقْبَيْهِ فَلَنِ يَصُرَّهُ اللَّهُ سَٰئِقًا وَسَٰيَجِرَىٰ اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144] ومعنى هذه الآية أنكم ستقتلون من هذه الدار لا محالة، وستجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عز وجل فيفصل بينكم، ويفتح بالحق، وهو الفتاح العليم، فينجي المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين. ثم إن هذه الآية، وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة. عن ابن الزبير قال: لما نزلت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: يا رسول الله، أتكرر علينا الخصومة؟ فقال ﷺ: «نعم» قال رضي الله عنه: إن الأمر إذاً لشديد. رواه ابن أبي حاتم والإمام أحمد، وعنده زيادة: ﴿ثُمَّ لَتَسْتَأَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: 8] قال الزبير: أي رسول الله، أي نعيم تسأل عنه؟ وإنما نعينا الأسودان: التمر والماء، قال ﷺ: «أما إن ذلك سيكون».

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٣٣)

يقول عز وجل مخاطباً للمشركين الذين افتروا على الله، وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولداً، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على السنة الرسل، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ﴾ أي لا أحد أظلم من هذا، لأنه جمع بين طرق الباطل، كذب على الله، وكذب رسول الله وقال الباطل، ورد الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وهم الجاحدون المكذبون.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۗ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٣٤)

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۗ﴾ الذي جاء بالصدق هو رسول الله، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ ۗ﴾ هم المؤمنون المسلمون ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ اتقوا الشرك.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٥)

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ﴾ يعني في الجنة، مهما طلبوا وجدوا ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۗ﴾.

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٥)

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٥) كما قال جل جلاله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (١١) [الأحقاف: 16].

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۗ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالذِّبْرِ مِنَ دُونِهِ ۗ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ

هَادٍ﴾ (٣٦)

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۗ﴾ يعني أنه تعالى يكفي من عبده وتوكل عليه. روى ابن أبي حاتم عن رسول الله ﷺ «قد أفلح من هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقنع به» ورواه الترمذي والنسائي ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالذِّبْرِ مِنَ دُونِهِ ۗ﴾ يخوف المشركون الرسول ﷺ ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التي يدعونها من دون الله جهلاً منهم وضلالاً. قال عز وجل: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۗ﴾.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ (٣٧)

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ (٣٧) أي منيع الجناب، لا يضام من استند

إلى جنباه، ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذي لا أعز منه، ولا أشد انتقاماً منه ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يعني المشركين، كانوا يعترفون بأن الله عز وجل هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره مما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ﴾ أي لا تستطيع شيئاً من الأمر. روى ابن أبي حاتم مرفوعاً «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف، ورفعت الأقلام، واعمل لله بالشكر في اليقين، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً» ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي الله كافي ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ روى ابن أبي حاتم عن النبي ﷺ: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله عز وجل أوثق منه بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتنق الله عز وجل».

﴿قُلْ يَفْقَهُمْ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٣٩﴾﴾

﴿قُلْ يَفْقَهُمْ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ﴾ أي على طريقتكم، وهذا تهديد ووعد ﴿إِنِّي عَمِلْتُ﴾ أي على طريقتي ومنهجي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي ستعلمون غب ذلك ووباله.

﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿١٤٠﴾﴾

﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم مستمر لا محيد له عنه، وذلك يوم القيامة. أعاذنا الله منها.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْتْ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ بِمُكِيلٍ ﴿١٤١﴾﴾

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني القرآن ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به ﴿فَمَنِ اهْتَكَيْتْ فَلِنَفْسِهِ﴾ أي فإنما يعود نفع ذلك إلى

نفسه ﴿وَمَنْ سَلَ فَإِنَّمَا يَصِلُ عَلَيْهَا﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك على نفسه ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي بموكل أن يهتدوا.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٢)

ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يفيضونها من الأبدان والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٦) وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴿١٦﴾ [الأنعام: 60، 61] فذكر الوفايتين: الصغرى ثم الكبرى، وفي هذه الآية ذكر الكبرى والصغرى، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فيه دلالة على أنها تجتمع في الملائكة الأعلى، كما ورد في الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفذ بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم ليقول: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ التي قد ماتت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿أَرِ الْأَنْحَادَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبِهِمْ أَمْ أَوْلَوْكَ كَاتِبَاتٌ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٣) قُلُوبِهِمْ  
لِللَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٤٤)

يقول تعالى ذاماً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي حجارات أسوأ حالاً من الحيوان بكثير، ثم قال: قل: أي يا محمد، لهؤلاء الزاعمين، أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى: أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255] ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو المتصرف في جميع ذلك ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي يوم القيامة فيحكم بينكم بعدله، ويجزي كلًا بعمله.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٥)

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي إذا قيل: لا إله إلا الله وحده ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾

أي انقبضت ونفرت، أو كفرت واستكبرت كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: 35] أي عن المتابعة والانقياد لها، فقلوبهم لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي يفرحون ويسرون.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٦)

يقول تبارك وتعالى بعدما ذكر المشركين ما ذكر من المذمة لهم في حبهام الشرك ونفرتهم عن التوحيد ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي أدع الله وحده لا شريك له الذي خلق السماوات والأرض وفطرها أي جعلها على غير مثال سبق ﴿عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي السر والعلانية ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي في دنياهم، أي ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (٤٧)

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المشركون ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي ولو أن ما في الأرض وضعفه معه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾ أي الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤٨)

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِمَّا قَالِ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٩)

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله عز وجل، وينيب إليه، ويدعوه، وإذا خوله نعمة بغى وطغى وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي لما يعلم الله تعالى من استحقاقه له، ولولا أنني عند الله خفيص لما خولني، قال قتادة ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: 78] على خبر عندي. قال الله عز وجل: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي ليس الأمر كما زعم، بل إنما أنعمنا عليه بهذه

النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أطيع أم يعصي؟ مع علمنا المتقدم بذلك فهي فتنه أي اختبار ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلماذا يقولون ما يقولون، ويدعون ما يدعون.

﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٥٠﴾

﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي قد قال هذه المقالة، وزعم هذا الزعم، وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم. ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي فما صح قولهم، ولا نفعهم جمعهم وما كانوا يكسبون.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَتُولَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿٥١﴾

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَتُولَاءِ﴾ أي من المخاطبين ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي كما أصاب أولئك ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

﴿أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٢﴾

﴿أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسعه على قوم، ويضيقه على آخرين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لعبراً وحججاً.

﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَفْزَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥٣﴾

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها، ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذا على غير توبة لأن الإله لا يغفر لمن لم يتب منه، روى البخاري أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: 68] ونزل ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَفْزَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ...﴾ ورواه مسلم وأبو داود والنسائي.

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ ﴿٥٤﴾

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ...﴾ أي ارجعوا إلى الله واستسلموا له ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النعمة.

﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بِغَتَّةٍ وَأَنْتُمْ لَا

تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾

﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بِغَتَّةٍ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي من حيث لا تعلمون ولا تشعرون .

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أي يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإجابة . ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ أي إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ ، غير موثق مصدق .

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ

أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَآكُوتُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَآكُوتُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي تود لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل .

﴿بَلَى قَدْ جَاءَ نَكَأئِنِّي فَكَذَّبْتُ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتُ وَكُنْتُ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾

أي جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتي في الدار الدنيا، وقامت حججي عليك فكذبت واستكبرت عن اتباعها، وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها .

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى

لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه، وتبيض وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى ههنا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي في دعواهم شريكاً ولولداً ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أي بكذبهم وافتراءهم . وقوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي أليست جهنم كافية سجناً وموتلاً لهم، فيها الخزي والحق والهوان بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق .

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ أي يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي ولا يحزنهم الفرع الأكبر، بل هم آمنون من كل فرع، مزحزون عن كل شر، نائلون كل خير .

﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١١)

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها، وربها ومليكمها، والمتصرف فيها، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٢)

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ المقاليد هي المفاتيح، أو خزائن السماوات والأرض، والمعنى أن أزمة الأمور بيده تبارك وتعالى، له الملك والحمد، وهو على كل شيء قدير ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بحججه وبراهينه ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُوْنَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (١٣) ﴿لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن

أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٤)

﴿قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُوْنَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (١٤) عن ابن عباس أن المشركين من جاهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهة فنزلت. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 88].

﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٥)

﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٥) أي أخلص العبادة لله وحده لا شريك له أنت ومن اتبعك وصدقك.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ

بِيَمِينِهِ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٦)

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قدره وقدرته. روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إن الله عز وجل يجعل السماوات على أصبع، والأرض على أصبع، والشجر على أصبع، والماء والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ ورواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ

فَإِذَا هُمْ بِقِيَامٍ يُنظَرُونَ﴾ (١٧)

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة، والزلازل الهائلة

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ...﴾ هذه النفخة هي الثانية، وهي نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله، كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً، وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء ويقول: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غانر: 16] ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَجْدُ الْفَهَّارِ﴾ [غانر: 16] أنا الذي كنت وحدي، وقد قهرت كل شيء، وحكمت بالفناء على كل شيء، ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل، ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى، وهي النفخة الثالثة: نفخة البعث، قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ بِنُظُرٍ﴾ أي أحياء بعدما كانوا عظاماً ورفاتاً صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: 13، 14].

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء ﴿وُضِعَ الْكِتَابُ﴾ كتاب الأعمال ﴿وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات ربهم ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ أي الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿وَنُضِعَ الْمَوَازِينَ الْقَاسِطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبًا ﴿١٧٧﴾﴾ [الأنبياء: 47].

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي من خير وشر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٧٨﴾﴾

يخبر تعالى عن الأشقياء الكفار كيف يساقون للنار، وإنما يساقون سرقاً عنيفاً بزجر وتهديد ووعيد كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٧٣﴾﴾ [الطور: 13] أي يدفعون إليها دفعاً، وهذا وهم عطاش ظماء ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعاً لتعجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق شداد القوى على وجه التفريع والتوبيخ والتكليل ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾؟ أي من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أي يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة دعوكم

إليه ﴿وَنُذِرُكُمْ لِتَمَاءِ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي ويحذرونكم من شر هذا اليوم، فيقول الكفار لهم ﴿بَلَىٰ﴾ أي قد جاؤنا وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿وَلَكِنَّ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة التي كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل.

﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٧٢)

﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه بما يحكم العدل الخبير عليهم به ولهذا قال جل وعلا ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ما كثرين فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي فبئس المقيال لكم بسبب تكبركم في الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه فبئس الحال، وبئس المآل.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ رَبَّنَا قَدْ خَلَّوْهَا خَالِدِينَ﴾ (٧٣)

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وهدوا إلى الجنة زمرًا، أي جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، كل زمرة يناسب بعضها بعضاً، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ أي وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، على قنطرة بين الجنة والنار، فافتضى لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ رَبَّنَا قَدْ خَلَّوْهَا خَالِدِينَ﴾ لم يذكر الجواب ههنا، وتقديره حتى إذا جاؤوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيماً، وتلقاهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء كما تلقى الزبانية الكفرة بالشرية والتأنيب، فتقديره إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسروا وفرحوا، وإذا حذف الجواب ههنا ذهب الدهن كل مذهب في الرجاء والأمل. ومن زعم أن الواو في قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ واو الثمانية، واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية فقد أبعث النجعة، وأغرق في النزاع، وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة كقوله ﷺ «إن في الجنة ثمانية أبواب، باب فيها يسمى باب الريان لا يدخله إلا الصائمون» رواه البخاري ومسلم.

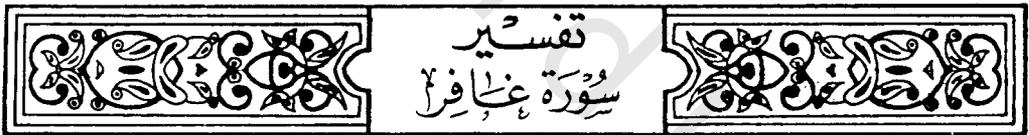
﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْثَقْنَا الْأَرْضَ نَبَوًّا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنَعْمَ

أَجْرَ الْعَمَلِينَ﴾ (٧٤)

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ﴾ أي يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر، والعتاء العظيم، والنعيم المقيم، والملك الكبير ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ﴾ أي الذي كان وعدنا على السنة رسله الكرام ﴿وَأَوْزَنَا الْأَرْضَ﴾ أي أرض الجنة ﴿حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي أين شئنا حللنا ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ فنعمة الأجر أجرتنا على عملنا. وفي الصحيحين «أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا تراها المسك».

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار، وأنه نزل كلاً في المحل الذي يليق به، ويصلح له، وهو العادل في ذلك الذي لا يجور أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه ويعظمونه ويقدمونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الخلائق ﴿بِالْحَقِّ﴾ ثم قال: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي نطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه الله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى القائل، بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات تمهدت له بالحمد. قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1] واختتم بالحمد في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.



كره بعض السلف أن يقال: الحواميم، وإنما يقال: «آل حم». قال عبدالله ابن مسعود: «آل حم» ديباج القرآن. وعن ابن عباس إن لكل شيء لباباً، ولباب القرآن «آل حم».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَم﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ أي تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن من الله ذي العزة والعلم، فلا يرام جنباه، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجاباه.